بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية

الأساتذة الأفاضل أعضاء مجمع اللغة العربية

أيها الحضور الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحييكم أزكى تحية، وأرحب بكم أجمل ترحيب، وأشكر لكم تفضلكم بالحضور

وإني وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآت بما لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأوائِلُ
وقد سارَ ذِكْري في البلادِ فمَن لهمْ بإخفاءِ شَمسٍ ضَوْءُها مُتكامِلُ

إنه أبو العلاء المعرّي، أحدُ أفراد الدهر، شاعرُ الفلاسفة وفيلسوفُ الشعراء،

فَخْرُ معرةِ النعمان وسيدُ أمراءِ البيان، ذو الفضل الكامل والعلم الشامل،

صاحبُ التصانيف المشهورة والرسائل المنثورة،

لَم يَنسج ناسجٌ على منوالها، ولَم يأتِ بليغٌ بمثالها

أيها السادة:

حديثي اليومَ بين أيديكم ليس سردًا تاريخيًا لحياة أبي العلاء، بل هو:

مشاهدُ نتعرَّف بها سيرتَهُ ومناقبَه،

ووقائعُ تَكشِفُ لنا نفسيتَهُ وأخلاقَه،

ومعالِمُ نستدلُّ بها على طريقِتِه ومنهاجِه،

وحوادثُ نستقي بها أهمَّ أخبارِهِ وأحوالِه،

ومناسباتٌ تُظهر تأمُّلاتِهِ وتنبيهاتِه،

يكون لنا فيها الاعتبارُ الموقظُ للنفس، والمنبِّهُ على تجريد العزمِ وعلوِّ الهمة،

نَستروح فيها من هموم الحياة وأعبائها، بعد أن غدت ركضًا محمومًا تطحن الناسَ بِرَحاها، وتشدُّهم شدًّا ثقيلاً إلى تَحَمُّل تكاليفها.

هذا وقد رغبتُ في أن يكون حديثي من كلام أبي العلاء نفسه، ومن شعره دون نثره. ومع أن هذا القيدَ مستعذَبٌ عند أربابه، فقد ألزمني الاستغناءَ عن إيرادِ أخبارٍ طريفةٍ وقصصٍ مشوِّقة للمعري لأنها لم ترِد في شيءٍ من شعره.

وثمة قيدٌ آخرُ ألزمتُ به نفسي، وهو الزمن المخصَّص لإلقاء البحث. ومع أن هذا القيدَ لَقِيَ هوًى في نفس، فقد حال دون استيعابِ سيرة أبي العلاء واستيفاءِ أخباره وأحواله. ولا أكتم أنني لما أنشأت هذا البحثَ، وجدتُ أن إلقاءه يستغرق أكثر من ساعتين، فرحتُ أهذِّبُهُ مرةً بعد مرةٍ إلى أن وصل إلى ما وصل إليه. ولئن فرَّطت بمزية الاستيعاب، لقد اجتهدتُ في أن يكون البحثُ صورةً معبِّرةً عن حياة المعري وسيرته.

واسمحوا لي أيها السادة أن أمهِّدَ لهذا الحديث بكلمةٍ موجزةٍ أعرض فيها مجملَ ما قيل في صفاتِ أبي العلاء، وفي صحة اعتقاده.

أما مجمل ما قيل في صفاته،

- فقد كان المعريُّ آيةً في الذكاء المفرط، عجبًا في الحافظة القوية.
- كان علاَّمةَ عصره، أخذَ عنه الناس، وسار إليه الطلبةُ من الآفاق، وكاتَبَهُ العلماءُ وأهلُ الأقدار.
- كان متضلِّعًا من فنون الأدب.
- كان يصوم الدهر، وكان طاهرَ اللسان واليد والذيل.
- أُوتِيَ من حصافةِ العقل، ودقةِ التفكير، وسِعَةِ الخيال، وغزارة القريحة، وفيضِ الخاطر ما لم يُؤْتَهُ كثيرٌ من الشعراء والعلماء.
- حاضرُ الذهن، وافرُ العلم، سريعُ الإدراك والفهم.
- وفي الجملة كان من أهل الفضل الوافي، والأدب الباهر.

وأما خلاصة القول في صحة اعتقاده،

فيقول ابن الوردي: "...ثم وقفتُ له على كتابِ (ضوء السقط) فكان هذا الكتاب عندي مُوضِحًا لصحة اعتقاده... فلقد ضَمَّنَ هذا الكتابَ ما يُثلجُ الصدرَ ويَلَذُّ السمعَ ويُقِرُّ العينَ ويَسُرُّ القلبَ... وهو خاتمةُ كتبه، والأعمالُ بخواتيمها... وكان يقول [أي المعري]: أنا شيخٌ مكذوبٌ عليه..."

وقال ابن العديم في كتابه (العدل والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري): "وقد اعتبرتُ [أي اختبرتُ وامتحنتُ] مَنْ ذَمَّ أبا العلاء ومَن مدحه، فوجدتُ كلَّ مَن ذَمَّه لم يره ولا صحبه، ووجدتُ كلَّ مَن لَقِيَهُ هو المادح".

وقال ابنُ العديم أيضاً: "رَمَوْهُ بالإلحاد والتعطيل، والعدول عن سواء السبيل، فمنهم مَن وَضَعَ على لسانه أقوالَ الملاحدَة، ومنهم مَن حَمَلَ كلامَهُ على غير المعنى الذي قصدَه، فجعلوا محاسنه عيوبًا، وحسناتِه ذنوبًا، وعقْلَهُ حُمْقًا، وزُهْدَهُ فِسْقًا، ورشقوه بأليم السهام، وأخرجوه عن الدين والإسلام".

وقال مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن) يردُّ تهمةَ معارضِة أبي العلاء للقرآن: "وتلك لا ريبَ فِريةٌ على المعري أرادَهُ بها عدوٌّ حاذق، لأن الرجلَ أبْصَرُ بنفسه وبطبقة الكلام الذي يعارضه".

والآن إلى حياة المعري من شعره، نتحدث فيها عن اسْمِهِ وكُنيته، ولَقَبِه، وعَمَاه، وطريقةِ تعلُّمه، ولَعِبِه ورِحْلاتِه، ....

ثم نتحدث عن جملة من صفاته الخُلُقية؛ من مثل: عفافه وإبائه، وتواضعه، وفخره....

ونبدأ بالحديث عن اسْمِهِ وكُنيتِه:

اسْمُهُ وكُنيتُه:

سَمَّاه أبوه أحمد، وكنَّاه بأبي العلاء. غير أنَّ أبا العلاء لم يكن راضيًا بهذا الاسم ولا بتلك الكُنية لما يُشعران به من المدح والتعظيم؛ فقد قال في الاسم:

وَأَحْمَدُ سَمَّانِي كَبيرِي وَقَلَّمَا فَعَلْتُ سِوى ما أَستَحِقُّ بِهِ الذَّمَّا

وقال في الكُنية:

دُعِيتُ أَبَا العَلاءِ وَذَاكَ مَيْنٌ   وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَبو النُّزُولِ

وهذه سجيَّةُ أبي العلاء في كُرْهِهِ كلَّ ما يُشعر بتكريمه وتعظيمه؛ فقد كان يسأل ذويه ألاَّ يميلوا إلى تكرمتِهِ فيقول:

سألْتُكُم لا تُكَنُّونِي لِتَكْرِمَةٍ   وصغِّرُوني تصغيراً بترخيمِ

وما ألومُكَ في خَفْضِي ومَنْقَصَتِي   لكنْ ألومُكَ في رَفْعِي وتَفْخِيمِي

لَقَبُه

لَقَّبَ أبو العلاء نفسَه وَهْنَ المَحْبِسَيْن للزومِهِ بيتَه وذهابِ عينيه، ثم لَمَّا أمعن في البحث عن أسرار الحياة، وأنفذَ أشعَّة عقلِهِ إلى أعماقها، أضاف إليهما سجنًا ثالثًا، وهو حَبْسُ الروحِ في الجسد، فأصبح في ثلاثةِ سجونٍ فقال:

أَرَانِي في الثَّلاثَةِ مِنْ سُجُونِي   فَلا تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ النَّبِيثِ

لِفَقْدِيَ نَاظِرِي وَلُزُومِ بَيْتِي   وَكَونِ الرُّوحِ في الجَسَدِ الخَبِيثِ

ولكنَّ الناسَ لم يَرْضَوْا بلزومِهِ بيتَهُ، فتوسَّلوا إليه بوسائلَ شتَّى حتى دخلوا إليه للزيارةِ والشفاعةِ وغيرِهما، فقَبِلِ ذلك منهم وفَتَحَ بابه للزائرين والمتعلمين.

عَمَاه

حياةُ أبي العلاء كلُّها مصائب، وأوَّل فاجعةٍ منها ذهابُ بصره بسبب الجُدّرِيّ وهو في الرابعة من عمره. غير أن أبا العلاء لم يَعُدَّ عماه مصيبة، بل كان يقول: " أنا أحْمَدُ الله على العمى كما يَحْمَدُهُ غيري على البصر، فقد صَنَعَ لي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثُّقلاء والبُغَضاء".

وقال مخاطبًا نفسَه:

أبَا العلاءِ بْنَ سُلَيمَانَا   إنَّ العَمَى أوْلاكَ إحْسَانَا

لَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ هذا الوَرَى   لَمْ يَرَ إنْسَانُكَ إنْسَانَا

والذي تميلُ إليه النفسُ أنَّ حَمْدَ المعريِّ ربَّهُ على العمى ليس عن سرورٍ واغتباطٍ به، وإنما هو مِن تلقِّي القضاء بالرضا والاستسلام إلى ما لا يُستطاع دَفْعُهُ، فهو نَفْثَةُ مَصْدُورٍ لا يَشِذُّ صاحبُها عن طريق الدين والأدب مع ربِّه.

طريقةُ تَعَلُّمه

لم يَذكرْ لنا التاريخُ الطريقةَ التي سلكها أبو العلاء في فاتحةِ تعلُّمه، ولكن الجائزَ القريبَ أن يكون تَعَلَّمَ الهِجاءَ [أي تقطيعَ اللفظةِ إلى حروفها، والنطقَ بهذه الحروف مع حركاتها] بالحروف النافرة، لأنها كانت معروفةً في ذلك العهدِ على ما يُشعِر به كلامُ أبي العلاء حيث يقول:

كَأَنَّ مُنَجِّمَ الأَقوام أَعمى   لَدَيْهِ الصُّحْفُ يَقرَؤُها بِلَمْسِ

ويؤيِّد هذا تصويرُه أشكالَ بعض الحروف كقولِهِ:

ولاحَ هِلالٌ مِثلُ نُونٍ أجادَها   بِمَاءِ النُّضَارِ الكاتبُ ابنُ هِلال

لَعِبُهُ في حَداثته

كان أبو العلاء يلعب بالشِّطْرَنْجِ في حداثته، وقد ذكرَ الشطرنجَ ورُقْعَتَهُ وأسماءَ قِطَعِهِ في مواطنَ من شعره، منها قوله:

أيّها اللاعِبُ الذي فَرَسُ الشِّطْـ   رَنْجِ هَمَّتْ في كَفِّهِ بالصَّهِيلِ
مَنْ يُبارِيكَ والبَيَاذِقُ في كَفْـ   فَيْكَ يَغْلِبْنَ كلَّ رُخٍّ وفيلِ
تَصْرَعُ الشَّاهَ في المَجالِ ولو جا   ءَ مُرَدَّى بالتَّاجِ والإكْلِيلِ

رَحَلاته

لم تَثبت لأبي العلاء رحلةٌ حقيقةٌ إلا إلى حلبَ وبغداد، وكلتاهما لم تكن لطلب العلم. أما رحلتُه إلى حلب، فلم يذكرها في شعره، لكنه ذكَرَ حلبَ في قصيدةٍ مُهنِّئًا مَلِكًا فقال:

ابْقَ في نِعْمَةٍ بَقاءَ الدّهورِ   نافِذَ الأمرِ في جميعِ الأمور
حَلَبٌ لِلْوَلِيِّ جَنَّةُ عَدْنٍ   وَهْيَ للغَادِرِينَ نَارُ سَعِيرِ

رحلته إلى بغداد

كانت بغدادُ في عهد أبي العلاء عاصمةَ الخلافة الإسلامية، ومقرَّ الأشراف، وملتقى الأمم من عربٍ وعجم، ومَجْمَعَ العلماءِ والأدباءِ والرواةِ والمترجمين، وزهرةَ الدنيا في حضارتها ونِضْرتها.

وكانت في بغدادَ خزائنُ كتبٍ كثيرة، منها مكتبتان عامتان: إحداهما بيت الحكمة، التي أسسها الرشيد، والثانية مكتبة سابور (أو دار العلم). وكان في بغدادَ إضافةً إلى هاتين المكتبتين كثيرٌ من المكتبات الخاصة.

سَمِعَ أبو العلاء بهذه الخزائن، فاشرأبت نفسُه إلى زيارة بغداد والاطلاع على ما فيها، فعقدَ النيةَ على ذلك، وأستأذنَ أمَّهُ فأذنت له بعد لأي. وكان عُمْرُهُ وقتئذٍ خمساً وثلاثين سنة.

وبعد أن دخلَ بغدادَ كتبَ قصيدةً ذكر فيها أنه أنشأ الرحلةَ إلى بغدادَ على ناقةٍ، فهو يَحُثُّها على السير ويأمرُها أن تسرعَ في الليل ولا تهابَ بياضَ الصبح، فقال:

يا نَاقُ جِدِّي فقدْ أَفْنَتْ أناتُكِ بِي　　　صَبْرِي وعُمْرِي وأَحْلاسِي وأَنْسَاعِي
إذا رأيتِ ظَلامَ الليلِ فانْصَلِتِي　　　وإنْ رأيتِ بَياضَ الصُّبْحِ فانْصاعِي

ثم وَصَفَ ما عرض له في رحلته من الاستعجال والخوف، فذَكَرَ جَمْعَ صلاةِ الظهر مع العصر فقال:

ورُبَّ ظُهْرٍ وَصلْناها على عَجَلٍ　　　بِعَصْرِها في بَعِيدِ الوِرْدِ لَمَّاعِ

وذكر أنه قَصْرَ الفريضةِ فقال:

وكَمْ قَصَرْنا صَلاةً غيرَ نافِلَةٍ　　　في مَهْمَهٍ كَصَلاةِ الكَسْفِ شَعْشَاعِ

وأشار إلى تَيَمُّمِهِ فقال:

بِضَرْبَتَينِ: لِطُهْرِ الوَجْهِ واحِدَةٌ　　　وللذِّراعَيْنِ أُخرى ذاتُ إسْرَاعِ

ماله

لم يكن أبو العلاء من ذوي الأحوال في الدنيا، وإنما خُلِّف له وَقْفٌ يَحصُل له منه في السنة نيفٌ وعشرون ديناراً، يأخذ خادمُهُ نصفَه، والباقي يسدُّ به رَمَقَه، ويؤدي حقوقَ أضيافِهِ وقاصدِيه، ويُجري على كتَّابه وطلابه. ولذلك كان يشكو قلَّةَ المال حينًا، وينفيه حينًا آخر، كقوله:

قَد غَدا القَومُ لِلنُّضَارِ فَنالُو	ه وَبِتْنَا وَمَنْ لَنا بِالزُّيُوفِ

وقولِهِ:

وَاتِّهامِيَ بِالمالِ كَلَّفَ أن يُطْـ	لَبَ مِنِّي ما يَقْتَضِي التَّمْوِيلُ
وَيَقولُ الغُواةُ خَوَّلَكَ الـ	لَهُ كَذَّبْتُمْ لِغَيْرِيَ التَّخْوِيلُ

طعامه

عاش أبو العلاء عيشةَ الشَّظَفِ والخشونة، وصاحبَ صومَ الدهر منذ بلغ ثلاثين عاماً، واقتصر على النبات حتى صار ذلك طبعاً له. وهو يقول في ذلك: "ومما حَثَّني على تركِ أكلِ الحيوان، أن الذي لي في السنة نيفٌ وعشرون ديناراً، فإذا أخذ خادمي بعضَ ما يَجِب، بقي لي ما لا يُعْجِب، فاقتصرتُ على فولٍ وبُلْسُن [العدس]، وما لا يَعْذُبُ على الألْسُن" [أي الحلوى].

وقد أشار المعريُّ إلى ما يرتضيه من الأطعمة، فقال:

يُقْنِعنِي بُلْسُنٌ يُمارَسُ لِي	فإن أَتَتْنِي حَلاوَةٌ فَبَلَسْ
فَلُسَّ ما اخْتَرْتَ إنَّ أرْوَحَ مِنْ	يَسَارِ قارُون عِفَّةٌ وفَلَسْ

وقولِهِ:

وَأَصْبَحْتُ مَعَ الدُنِّيا	أُدارِيها كَمَنْ دَارَى
وما عِرْسِي حَوْرَاءُ	ولا خُبْزِي حُوَّارَى

وقولِهِ:

كَم تَنْصَحُ الدُّنيا وَلا نَقْبَلُ	وَفائِزٌ مَنْ جَدُّهُ مُقْبِلُ

إنَّ أّذاها مِثْلُ أَفعالِنا   ماضٍ وَفِي الحالِ وَمُسْتَقْبَلُ
فَاتْرُك لأَهلِ المُلكِ لَذّاتِهِم   فحَسبُنا الكَمْأَةُ وَالأَحْبَلُ

وذكرَ ما يأباه من الأطعمة، فقال:

أَبَى الله أَكْلِي دَرَّ ضَأْنٍ وَماعِزٍ   وَ إِدْخالِيَ الأَمْرَ المُضِرَّ عَلى السَّخْلِ

وقولِهِ:

تَقِ الله حَتَّى في جَنَى النَّحْلِ شُرْتَهُ   فَما جَمَعَتْ إِلَّا لأَنْفُسِها النَّحْلُ

وقولِهِ:

فلا تَأْكُلَنْ ما أَخْرَجَ البَحْرُ ظَالِماً   ولا تَبْغِ قُوتًا مِنْ غَرِيضِ الذَّبَائِحِ

هو والخمر

لم يشرب أبو العلاء خمراً، أو ما هو في معنى الخمر، ولم يشهد مجلسًا تدار فيه كؤوس الخمر، ولا حدثته نفسُه بشربها، وإنما كان يمقتها مقتًا شديدًا، ويَنْعى على شُرَّابِها. وهو يعتقد أنها بابُ كلِّ بلية، وأنها سمٌّ يُودِي باللُّب، وأنها لو كانت حلالاً لما شربها، فهو يقول:

لَو كانَتِ الخَمرُ حِلاًّ مَا سَمَحْت بِها   لِنَفْسِيَ الدَّهْرَ لاَ سِرًّا وَلا عَلَنَا
فَليَغْفِرِ اللهُ كَم تَطغى مَآرِبُنا   وَرَبُّنا قَد أَحَلَّ الطَّيِّبَاتِ لَنا

ويقول:

لا أَشْرَبُ الرَّاحَ وَلَو ضُمِّنَتْ   ذَهَابَ لَوْعَاتِي وَأَحْزَانِي

ويقول:

لا أَشْرَبُ الرَّاح أَشْرِي طِيبَ نَشْوَتِها   بِالعَقْلِ أَفْضَلِ أَنْصَارِي وَأَعْوَانِي
لَوْ كَانَ يَعْرِفُ دُنْيَاهُ مُصَاحِبُها   أَرَادَهَا لِعَدٍّ دُونَ إِخوانِ

وهو يذم الخمر ويحرِّض على الابتعاد عنها، فيقول:

إِيَّاكَ وَالخَمْرَ فَهْيَ خَالِبَةُ   غَالِبَةُ خَابَ ذَلِكَ الغَلَبُ

ويقول:

لا تَشرَبَنَّ الخَمرَ فَهِيَ غَوِيَّةٌ ساقَت بِأَنعامِها طَوِيلَ الأَبؤُسِ

ويقول

وَأَمّا الخَمرُ فَهِيَ تُزِيلُ عَقلاً فَتَحْتَ بِهِ مَغالِقَ مُبهَماتِ

ويقول:

يا بَدَوِيُّ اتَّقِ المُدامَةَ إِنّ الـ خَمرَ باتَت كَثيرَةَ الأُبَنِ
أَفضَلُ مِن أَحْمَرِ السُّلافِ وَمِن كُمَيْتِها ناصِعُ مِنَ اللَّبَنِ

آنيتُه

لما كان أبو العلاء زاهدًا في المطعم الطيب والمشرب الطيب، كان زاهدًا في اتخاذ الآنية النفيسة مُعْرضًا عن اقتناء الفاخر منها. وقد بيَّن في شعره ما يرتضيه منها وما لا يرتضيه فقال:

وَنَشرَبُ الماءَ بِراحاتِنا إِن لَم يَكُن ما بَينَنا جُنْبُلُ

لباسه

كان لباسُه صورةً قاسيةً من الزهر ألزم نفسه بها، فهو يلبس ثوبًا خشنًا من القطن ليست له بطانة:

فَعُجْ يَدَكَ اليُمْنَى لِتشْرَبَ طاهِراً فَقَد عِيفَ لِلشُّرْبِ الإِناءُ المُعَوَّجُ

وهو يرى أن الغايةَ المقصودةَ من اللباس تَحصُل بأيِّ نوعٍ كان:

لِباسِيَ البُرْسُ فَلا أَخضَرُ وَلا خَلُوقِيٌّ فَقِطعَةً مِن بُرْجُدِ

وكان يقاسي في الشتاء من شدة البرد ما لا يحتمله غيره، لأن ثوبه بلا بطانة.

أُجاهِد بِالطَّهارَةِ حِينَ أَشْتُو　　　　وَذاكَ جِهادُ مِثْلِي وَالرِّبَاطُ
مَضى كانُونُ ما استَعملتُ فيهِ　　　　حَمِيمَ الماءِ فَاقْدَمْ يا سُبَاطُ

عدم تزوجه

بقي أبو العلاء صَرُورةً مدةَ حياتِه. أما الأسبابُ التي حَمَلَتْه على عدم الزواج فعديدة؛ منها: إفراطُهُ في الغَيْرة على المرأة إلى درجةِ سوء الظن بها،

ومنها: إشفاقُه على الولد من عوادي الدهر وصروفه، فآثرَ إبقاءَ بَنِيهِ في راحةِ العَدَم.

ومنها: أنه عاجزٌ عن القيام بأمر نفسه، مستطيعٌ بغيره، فكيف يقوم بأمر أولاده.

ومنها: خشيتُه من أن يُحْوِجَهُ الإنفاقُ على عياله إلى أن بذل ماء وجهه بسؤال،

ومنها: خوفُه ألَّا يُنجبَ في نسله.

أما في إفراطه في الغيرة على المرأة وفي سوء الظن بها، فيقول:

أَعوذُ بِاللَهِ مِنْ ورْهاءَ قائِلَةٍ　　　　لِلزَّوجِ إِنِّي إِلى الَحمّامِ أَحتاجُ
وَهَمُّها في أُمورٍ لَو يُتابِعُها　　　　كِسرى عَلَيها لَشِينَ الُملْكُ وَالتاجُ

وهو يرى أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، لخلوِّه من الريبة والتعرض لأهل الريبة، فيقول:

إِذا ما رامَتِ الصَّلَواتِ خَوْدٌ　　　　فَكِنُّ البيتِ أَفضَلُ مَسْجِدَيْها
وَلَو صَلَّت بِمَنْزِلِها وَصامَت　　　　لأَلْفَتْ ما تُحاوِلُهُ لَدَيْها

وينصح- من شدة غَيْرته عليها أيضًا- بعدم دخول الأولادِ إذا بلغوا عشرًا على النساء، فيقول:

إِذا بَلَغَ الوَليدُ لَدَيك عَشرًا　　　　فَلا يَدخُلْ عَلى الُحرَمِ الوَلِيدُ
فَإِنْ خالَفَتنِي وَأَضَعْتَ نُصْحِي　　　　فَأَنتَ وَإِنْ رُزِقْتَ حِجًا بَلِيدُ

وفي إشفاقهِ على الولد من عوادي الدهر وصروفه يقول:

أَلا تَفَكَّرتَ قَبلَ النَّسلِ في زَمَنٍ　　　　بِهِ حَلَلْت فَتَدْرِي أَينَ تُلْقِيهِ
تَرْجُو لَهُ مِن نَعِيمِ الدَّهرِ مُمْتَنِعًا　　　　وَما عَلِمْتَ بأَنَّ العَيْشَ يُشْقِيهِ

ولذلك فهو يرى أن عَدَمَ الوارث يخفِّف من الكوارث، فهو يقول:

وَهَوَّنَ أرزاءَ الَحوادِثِ أنَّنِي وَحيدٌ أُعانيها بغير عِيالِ
فَدَعْنِي وأهوالًا أُمارِسُ ضَنْكَها وإيّاكَ عَنِّي لا تَقِفْ بِحِيالي

أسنانه

يبدو أن أبا العلاء لم تَسلمْ له جارحةٌ من آفة، فحتى أسنانُه دَبَّ إليها الفساد، وفي هذا يقول:

فَمِني أَخَذَت مِنهُ اللَّيالي وإنني لأَشْرَبُ مِنهُ في إناءٍ مُثَلَّمِ
وأوْدَى بِظَلْمِ الثَّغْرِ صُبْحٌ وَحِنْدِسٌ مَتَى يَنْظُرا في نَيِّرِ العَيْنِ يُظْلِمِ

شعره

يبدو أن شَيْبَ أبي العلاء قد تأخَّر، ويَظهر من كلامِه أنه غيرُ مستحسن لهذا التأخر؛ فقد قال:

أَيا مَفرِقِي هَلاَّ ابْيَضَضْتَ على المَدَى فَمَا سَرَّنِي أَنْ بِتَّ أَسْوَدَ حالِكَا
قَبيحٌ بِفَوْدِ الشَّيخِ تَشْبِيهُ لَوْنِهِ بِفَوْدِ الفَتَى واللهُ يَعْلَمُ ذلِكَا

وكان لا يَخْضِبُ شَعرَهُ، وإنما يعتقد أنَّ:

مَنْ يَخضِبِ الشَّعَراتِ يُحْسَبْ ظالِمًا وَيُعَدُّ أَخْرَقَ كَالظَّلِيمِ الخاضِبِ

ومن مراجعاتِهِ الرائعة [المراجعة: حوارٌ يجريه الشاعر بينه وبين مخاطَبِهِ من سؤالٍ وجوابٍ بأحسنِ عبارةٍ وأرشقِ سبكٍ وأسهلِ لفظ] قولُهُ:

هِيَ قالتْ لَمَّا رَأَتْ شِيْبَ رَأْسِي وأرادَتْ تَنَكُّرًا وازْوِرَارَا
أنا بَدْرٌ وقد بَدَا الصُّبْحُ في رَأْ سِكَ والصُّبْحُ يَطْرُدُ الأَقْمَارَا
لَسْتِ بَدْرًا وإنَّما أنْتِ شَمْسٌ لا تُرى في الدُّجَى وتَبْدو نَهَارَا

مرضُهُ الأخير ووفاتُه

توالت الأرزاء على أبي العلاء من المهد إلى اللحد، وانتابتْهُ الأوصابُ والعِلَلُ حيناً بعد آخر. وقد أشار في مواطنَ من شعره إلى ما بَلَغَ به مَرُّ الزمان وتَعَبُ الحياة، منها قولُه:

وَأَخْلَقَنِي مَرُّ الزَّمانِ وكدُّهُ فَصارَ أَدِيمي كَالسِّقَاءِ المُرَمَّمِ

ولما حضرته الوفاة، أتاه ابنُ أخيه بقَدَحٍ من خلٍّ وعسل فامتنعَ من شُربه، فحلفَ ابنُ أخيه أيماناً مؤكَّدةً أنه لا بدَّ أن يشربه، فأجابه أبو العلاء:

أعَبْدَ اللهِ خَيْرٌ مِن حياتِي   وطُولِ ذَمائِها مَوْتٌ مُرِيحُ
تُعَلِّلُنِي لِتَشْفِيَنِي فَذَرْنِي   لَعلِّ أستريحُ وتَستريحُ

وقد ذكر بعضُ المؤرخين أن أبا العلاء لَمَّا قاربَ الوفاةَ أوصى أن يُكتب على قبره هذا البيت

هذا جَنَاهُ أبِي عليَّ   وما جَنَيْتُ على أحدْ

غير أن المحقِّقين اكَّدوا أن هذا البيتَ غيرُ موجودٍ في شيءٍ مِن كُتبِ أبي العلاء.

وقد رثاه على قره أكثرُ من ثمانينَ شاعراً، نكتفي بأبياتٍ لأحدهم هو الأمير أبو الفتح الحسن بن أبي حُصَيْنَة المعرِّي:

العِلمُ بَعدَ أبِي العَلاء مُضَيَّعُ   وَالأرضُ خالِيةُ الجَوانِبِ بَلْقَعُ
أَوْدَى وقدْ مَلأَ البلادَ غَرائِبًا   تَسْرِي كَما تَسْرِي النُّجُومُ الطُّلَّعُ
ما كُنْتُ أَعْلَمُ وَهْوَ يُودَعُ في الثَّرَى   أنَّ الثَّرَى فِيه الكَوَاكِبُ تُودَعُ
وَعَجِبْتُ أنْ تَسَعَ المَعَرَّةُ قَبْرَه   وَيَضيقُ بَطْنُ الأرضِ عَنْهُ الأَوسَعُ
تَتَصَرَّمُ الدُّنيا وتَأتِي بَعْدَهُ   أُمَمٌ وأنتَ بِمِثْلِه لا تَسْمَعُ
ما ضَيَّعَ الباكِي عليكَ دُمُوعَه   إنَّ الدُّمُوعَ على سِوَاكَ تُضَيَّعُ
قَصَدَتْكَ طُلاَّبُ العُلُومِ وَلا أرَى   لِلْعِلْمِ بابًا بَعْدَ بابِكَ يُقْرَعُ
ماتَ النُّهى وَتَعَطَّلَتْ أسبابُه   وقَضَى التَّأَدُّبُ والمَكارِمُ أَجْمَعُ

والآن إلى جملةٍ من صفاته الخُلُقية:

عفافه وإباؤه

عاش أبو العلاء عِيشةَ الشَّظَف، وكان يتجلَّد ولا يبذل ماءَ وجهِه بسؤال، ولا يَمدُّ يدَه لقبلو صِلةٍ أو مِنْحة، ولو كانت من أميرٍ أو ملك، بل يكتفي بما يحبوه به الله:

وَلَمْ يَحْبُنِي أَحَدٌ نِعْمَةً   وَلكِنَّ مَولَى المَوالِي حَبَا

وقال من قصيدة قالها في بغداد يخاطب بها قومَه في المعرة:

أُنَبِّئُكُمْ أَنِّي على العَهْدِ سَالِمٌ   ووَجْهِيَ لَمَّا يُبْتَذَلْ بسُؤَالِ

تواضعه

كان أبو العلاء شديدَ التواضع، يحب أن يتضاءل ويصغِّر شأنه لاسيما في علمه وأدبه. وفي أشعاره ألوانُ مختلفة من ذلك، كقولِهِ:

مَنْ يَبْغِ عِنْدِيَ نَحْوًا أَو يُرِدْ لُغَةً   فَما يُساعَفُ مِنْ هَذا وَلا هَذي

وقولِهِ:

أَطَلَبتُمُ أَدَبًا لَدَيَّ ولَمْ أَزَلْ   مِنه أُعاني الحَجْرَ والتَفلِيسَا

فخره

لا تناقض هذه الخلة تواضع أبي العلاء فلكل منهما زمانها ومناسبتها. على أن الفخر غرض من أغراض الشعر يتنافس فيه الشعراء، وقلما خلا شعر شاعر مُجَوِّدٍ منه. ولأبي العلاء قصائد رائعة في الفخر، من ذلك قولُهُ:

ولي مَنْطِقٌ لَمْ يَرضَ لِي كُنْهَ منزِلِي   على أَنَّني بين السِّمَاكَيْنِ نازِلُ
لَدَى مَوْطِنٍ يَشتاقُهُ كُلُّ سَيِّدٍ   ويَقْصُرُ عن إدراكِهِ المُتَنَاوِلُ

وقولُهُ من قصيدة أخرى:

ليَ الشَّرَفُ الذي يَطَأُ الثُّرَيَّا   معَ الفَضْلِ الذي بَهَرَ العِبَادا
وَكَم مِنْ طالِبٍ أَمَدِي سَيَلْقَى   دُوَيْنَ مَكَانِي السَّبعَ الشِّدَادَا
ويَطعَنُ في عُلايَ وإنّ شِسعِي   لَيَأنَفُ أن يكونَ له نِجادا

وقولُهُ من قصيدةٍ ثالثة:

ولقد غَصَبْتُ الليل أحسن شُهبِهِ   ونظَمْتُها عِقْدًا لأحْسَنِ لابِسِ

وقولُهُ من قصيدةٍ رابعة:

تعاطَوْا مَكَانِي وقد فُتُّهُمْ   فما أدرَكوا غيرَ لَمْحِ البَصَرْ

وقد نَبَحوني وما هِجْتُهُمْ		كما نَبَحَ الكلْبُ ضَوْءَ القَمرْ

تقواه وعبادته

كانت التقوى ذُخْرَ أبي العلاء، فهو يقول:

ومَنْ يَذخَرْ لِطُولِ العَيشِ مالاً		فإنَّ تُقايَ عِندَ الله ذُخْرِي

الصلاة عند أبي العلاء هي أنفسُ شيء وأفضلُه:

الحَمدُ لله قد أصبَحتُ في دَعَةٍ		أرضى القَليلَ ولا أهتَمُّ بالقوت
وشاهِدٌ خالِقِي أنَّ الصلاةَ لَهُ		أجَلَ عندِي مِن دُرِّي وياقُوتِي

ويقول

أُقيمُ خَمسي وصومُ الدهرِ آلفهُ		وأدمن الذكر أبكاراً بآصال
عِيدينِ أفطر في عامِي إذا حضرا		عيدَ الأضاحيِّ يقفو عيدَ شوَّال

رجاؤه وخوفه

كان أبو العلاء حسن الظن بالله، واسع الرجاء في رحمته وعدله، كثير الطمع بعفوه وغفرانه

ففي معاني الرجاء يقول

أُومِّل عفو اللهِ والصدرُ جائشٌ		إذا خَلَجتني للمَنونِ الخوالجُ

ويقول

وإني وإن لم آتِ خيرًا أَعُدُّه		لآمُلُ إرواءً بخير ذنوبِ
ويقول

لِيفعل الدهرُ ما يهمُّ به   إنَّ ظنوني بخالقي حسنَهْ
لا تيئس النَّفسُ من تفضله   ولو أقامت في النار ألف سنَهْ

ومن معاني الخوف يقول

أمَّا الحياةُ فلا أرجو نوافِلَها   لكنني لإلهي خائفٌ راج
ويقول

أعوذُ بربي من سُخطِهِ   وتفريط نفسي وإفراطِها

إخلاصه

كان أبو العلاء يحب الإخلاص ويحض عليه، فكان يقول:

إذا ما فعلتَ الخيرَ فاجعلهُ خالصًا   لربكَ وازجُر عن مديحكَ ألسُنَا
فكونك في هّذي الحياةِ مصيبةٌ   يُعَزِّيك عنها أن تبرَّ وتحسنا
ويقول

إذا أخلصت للخَلاَّق سرًّا   فليست من ضوائِرِكَ الضَّواري

رأفتُهُ ورِفْقُه

حضَّ أبو العلاء في مواطنَ كثيرةٍ من شعره على الرأفة بالعبيد والخدم والفقير والضعيف واليتيم والأعمى، ففي الرفق بالعبد والخادم يقول:

إذا كَسَرَ العَبْدُ الإناءَ فَعُدَّهُ   أَذاةً لَهُ إنَّ الإناءَ إلى كَسْرِ
رَقِيقُكَ أَسْرَى في يَدَيْكَ فَلا تَكُنْ   غَليظاً عليهم وَاتَّقِ الله في الأَسْرِ
ويقول:

وَارْدُدْ عَصاكَ عَنِ السَّوداءِ ماهِنَةً   وَارْفُقْ بِعَبْدِكَ في المُصْطافِ وَالقَرَسِ
وفي الرفق بالفقير يقول:

إذا طَرَقَ المِسكينُ دارَكَ فَاحْبُهُ قَليلاً وَلَوْ مِقْدارَ حَبَّةِ خَرْدَلِ
وَلا تَحتَقِرْ شَيئًا تُساعِفُهُ بِهِ فَكَمْ مِنْ حَصاةٍ أَيَّدَتْ ظَهْرَ مِجْدَلِ

وفي الرفق بالأعمى يقول:

تَصَدَّقْ على الأعْمى بأخْذِ يَمِينِهِ لِتَهْدِيَهُ وَامْنُنْ بإفْهَامِكَ الصُّمَّا

هو والدنيا

نظر أبو العلاء إلى الدنيا بمنظارٍ قاتمٍ أسود، وقد أوسعَها ذمًّا ولوماً، وزهَّدَ فيها، وحضَّ على اجتنابها، من ذلك قولُه:

دُنياكَ دارُ شُرورٍ لا سُرورَ بِها وَلَيسَ يدري أخُوها كيفَ يَحْتَرِسُ

وقولُه:

إن كُنتَ قد أُوتِيتَ لُبًّا وحِكْمَةً فَشَمِّرْ عن الدنيا فأنتَ مُنافيها
وكُونَنْ لَها في كُلِّ أمرٍ مُخالِفًا فَما لَكَ خَيْرٌ في بَنيها ولا فيها

وقولُه:

سَكَنتُ إلى الدنيا فَلَمَّا عَرَفْتُها تَمَنَّيتُ أنِّي لستُ فيها بِسَاكِنِ
وَما فَتِئَتْ تَرمي الفتى عَن قُسِيِّها بِكُلِّ الرَّزايا من جَميعِ الأماكِنِ

وهكذا رأينا أن أبا العلاء كان زاهداً في الدنيا، معرضاً عن زينتها، وأنه كان يزهِّد الناس فيها، ولكنه كان يريد بهذا التزهيد ألاَّ ينخدع الإنسانُ بها فيجعلَها أكبرَ هَمِّه وأقصى أملِه ومَبْلَغَ عِلْمِهِ، بل كان يَحُضُّه على العمل والكسب؛ فهو يقول:

اعْمَل لأُخْرَاكَ شَرْوى مَنْ يَمُوتُ غَداً وَادأَبْ لَدُنياكَ فِعْلَ الغَابِرِ البَاقِي

وصاياه ونصائحُه

وصايا المعري ونصائحُه مبثوثةٌ في مواطنَ كثيرةٍ من شعره؛ يتعذَّر ذكرها موجزةً مُجملة، فكيف بها مشروحةً مفصلة؟

ففي حضِّه على إقامة الصلاة، والنهير عن توَّلي المناصب يقول:

ارْكعْ لِرَبِّكَ في نهارِكَ واسْجُد وَمَتى أَطَقْتَ تَهَجُّدًا فَتَهَجَّدِ
أَنْهاكَ أَنْ تَلِيَ الحُكومَةَ أو تُرى حِلْفَ الخَطابَةِ أو إمامَ المسْجِدِ

وفي حضِّه على تغليب الصمت على الكلام يقول:

واصْمُتْ فإنَّ كَلامَ المرءِ يُهْلِكُهُ   وإنْ نَطَقْتَ فإفْصَاح وإيجاز

ويوصي الأولّاد بآبائهم فيقول:

تَحَمَّل عن أبيكَ الثُّقْلَ يومًا   فإنَّ الشيخَ قَد ضَعُفَتْ قُواهُ

أتى بِكَ عن قضاءٍ لم تُرِدهُ   وآثَرَ أن تفوزَ بما حَواه

ويَخُصُّ الأمَّ بمزيد إكرامٍ وإحسانٍ فيقول:

العيشُ ماضٍ فأكرِمْ والديكَ به   والأُمُّ أولى بإكرامٍ وإحسانٍ

وَحَسبُها الحملُ والإرضاعُ تُدمِنُه   أمرانِ بالفضلِ نالا كُلَّ إنسانِ

وينصح الولاةَ بالتواضع وعدم الظلم فيقول:

أيا والِيَ المِصرَ لا تَظلمَنَّ   فَكَم جاء مِثْلُكَ ثمَّ انْصَرَفْ

تَواضع إذا ما رُزِقتَ العَلاء   فذَلِك مما يَزيدُ الشَرَف

وهو يدعو إلى عدم استراق النظر، فيقول:

فَنَزِّه ناظِرَيك عنِ الغواني   وَأَكرِمْ جارِتَيْكَ عن الحِوارِ

إذا قَصُرَ الجِدارُ فلا تشَرَّفْ   لِتنظُرَ ما تَستَّر في الجِوار

ويوصي بإكرام الضيف، فيقول:

إذا الضَّيفُ جاءك فابْسِمْ له   وقرِّبْ إليه وَشِيكَ القِرَى

ولا تَحْقِرِ المُزدَرَى في العُيونِ   فكمْ نَفَعَ الهَيِّنُ المُزْدَرَى

ويوصي بعدم الجمع بين الضرائر فيقول:

إذا كنتَ ذا ثِنْتَينِ فاغْدُ مُحارِبًا   عَدُوَّيْنِ واحْذَر مِن ثَلاثِ ضرائرِ

وإنْ كنتَ غِرًّا بالزَّمان وأهلِهِ   فتكفيكَ إحدى الآنساتِ الغرائرِ

شكرا لإصغائكم

والسلام عليكم